الفتاة التي سلبتني ولدي

مترجمة عن الانجليزية

بقلم إميل فرج

« أهي غيرة امرأة أم حب أم الذي جعلها تمقت الفتاة التي أحبت ابنها الحبيب . . . ؟ »

***

كان هاري جرانت فقيراً معدماً عند ما تبادلنا حباً جنونياً جارفاً ، وكنت أنا في العشرين من عمري فتزوجنا ... فولد زواجنا في نفسه حلماً رائعاً جميلاً ورغبة ملحة قاهرة في أن يغتني ، ولذلك عزم على مبارحة انجلترا إلى أمريكا ليجرب حظه فيها .

إن صوته الآن ليبلغ أذني من بعيد فيردد قلبي صداه في ثورة مكتومة حبيسة ، وعيناه . . . إني لأراهما ترتفعان في الفضاء أمامي في تساؤل حبيب وهو يقول :

— هل ترافقينني يا لوسي في رحلتي إلى أمريكا . . . ؟

— سأكون معك في أي مكان يا حبيبي . . . سأرافقك إلى أقصى العالم . . . سأتبع معبودي الفريد .

وهنالك في أمريكا وبالرغم من كراهيتي للطهي والحياكة ، وبالرغم من مزاجي الحاد المتقلب فقد طابت لنا الحياة ، واغتنينا لأن الحب والشباب كانا يولدان فينا قوة هائلة لا تقهر .

ولكن . . . لم يكد طفلنا هاري الصغير يبلغ من العمر ستة أسابيع حتى مات زوجي العزيز . ففقدت بموته كل أمل لي في الحياة وانهارت الأحلام الذهبية من أساسها وخيل لي في ذلك الوقت أن يداً خفية جبارة تصرعني بقسوة وعنف ، ولكن . . وسط الدموع الغزيرة والأحزان المستبدة تراءى لي وجه هاري الصغير وهو يبتسم ابتسامته الملائكية فاسترجعت صوابي وعزمت على أن أعيش . . أجل أعيش من أجل ولدي العزيز لأنه يحتاج إلى حناني .

ونشأ هاري الصغير دون أن يعرف شيئاً عن أبيه الراحل ، ولذلك كنت له أباً وأماً ومنحته كل مجهودي وحيويتي لأني أيقنت أنه مفتقر إليهما . . لقد كان هاري الصغير حياتي التي أحياها . . كان روحي التي تتردد في جسدي . . . كان كل نصيبي في الحياة

وهكذا مرت الأسابيع مملة ثقيلة ، ولكن تمكن طفلي العزيز بعد مدة أن يملأ هذا الفراغ الموحش الذي كان يضايقني ويبدد الظلام الدامس الذي كان يسود حياتي . . ومرت السنون وتتابعت الأيام وأصبح هاري رجلي الحبيب الوحيد وكنت به سعيدة قانعة . . .

واعتقدت في ذلك الوقت أني مثال الأم الرحيمة الحنون . ولكني وجدت نفسي مخطئة فقد منحت هاري حياتي ولذلك أردته ان يكون لي وحدي . . أهي الأثرة وحب النفس الذي جعلني هكذا . . ؟ ربما ، ولكني لم أكن لأدرك هذا في ذلك الوقت إذ

لم يكن يدور فى خلدى مطلقاً أن هاري يتزوج ويذهب مع المرأة الخليقة به ويتركني وحيدة فريدة ؛ لقد كنت أوقن فى ذلك الوقت أن هذا اليوم لن يأتى مطلقاً وسيقضى هارى كل حياته بجانبى يضحى بكل حب من أجلى . . . أنا أمه الحبيبة ، ولذلك كنت مستعدة أن أدفع أى ثمن مهما بلغ من أجل بقائه بجانبى . . . فقد تصابيت من أجله . . عملت على أن أكون رشيقة كفتيات المدارس لأروق فى عينيه ، تركت أصدقائى ونبذت حياة الرزانة والكبر وسرت بجانبه فى طريق الشباب وملاهيه ، كل ذلك من أجله . . . من أجل ولدى العزيز .

لقد جاهدت لأستبقيه بجانبى . . . ولكن فى لمحة خاطفة فقدته . . . أجل فقدته

* * *

ما كاد هارى يحصل على إجازة الجامعة حتى ذهبنا فى رحلة إلى شاطىء الريفييرا ليستعيد نشاطه وسط المناظر الخلابة والطبيعة الساحرة وهناك شعرت بالتعاسة تجتاح قلبي الكسير بعنف شديد ، وأحسست بالشيخوخة تدب فى أوصالى فتوهنها وتنهكها حتى كرهت جميع الناس . . . كرهتهم في شخص مارى ريفرز تلك الفتاة الرزينة الجميلة التى سرقت هاري وانتزعته من بين أحضانى والتى لم يقو المسكين على مقاومة سحرها ومغالبة فتنتها ففتنته اللعينة فى مدى يومين . .

لقد دعتنا للعب البردج دون سابق معرفة فلبي هارى دعوتها مسروراً مرتاحاً ، وبعد انتهاء اللعب وانصراف الناس التفت إلى هارى قائلاً :

— إنها مثال الفتاة العصرية اللعوب لأنها صادقت شاباً صغير السن وامرأة مسنة مغضنة الوجه دون . . .

— فقاطعني هارى بهدوء :

— ربما لم تظن أنك امرأة كبيرة السن يا أماه لأن من يراك يجد فيك شابة مرحة طروباً حتى لأظنها تخالك أختي .

ولكن هذا القول لم يفرحنى بل على النقيض أغضبنى أشد الغضب لأنى رأيت فيه نوعا من التملق المقوت فقلت :

— إنها فتاة جريئة على كل حال . . .

— هو كذلك ياأماه ، وإنى لأحب هذا النوع من الفتيات

— آه . . . ماذا تقول يا هارى ؟

— إننى أعنى ماقلت ، فاني أحب الأشخاص الذين يعرفون ما يريدون ثم يجاهدون حتى يحصلوا على أمنيتهم

— إنى متأكدة يا هارى أنك لاتميل لفتاة تتصيد الشبان من الطريق . . .

وبعد يومين تأكدت أن قولي هذا كان عديم الجدوى ، لأن هارى ومارى أصبحا لايفترقان فكانا يشتركان فى لعب التنس والسباحة والرقص وكل شىء حتى صار من العسير التفريق بينهما

كان ولدى أعمى . . . أحمق . . . لايدرك ماهو مقدم عليه . . . ولا يعرف أن مصادقته لهذه الفتاة جعلت الثورة تتمشى فى دمائي ، والغضب يستبد بي أشد الاستبداد ، والحزن يسيطر على قلبي ، لأني كنت أمقت هذه الفتاة من كل قلبي . . .

وبعد قليل من الزمن عزمت على أن أحادثها لأفهمها أن هارى لن يفكر فى الزواج فى مثل هذه السن المبكرة ولن تناله مهما فعلت لأنه ولدى ورجلي وحدي فأنا أمه ولى مطلق التصرف فيه . . .

ولكن واأسفاه لم أستطع أن أحادثها ، لا لأنها طائشة غير مؤدبة بل كانت على النقيض مثال الأدب الخجول والشخصية الجذابة المحترمة والشباب المفرى

الفتان ، إلا أن كبرياءها وعزة نفسها أقامتا حاجزاً شفافا بينها وبين أم الشاب الذى تحبه . . .

كانت تخبرنى بأدب وكياسة أن أعنى فقط بشئوني ولا أضايق الآخرين ، فأقول لنفسى حينئذ إنها خبيثة ماكرة ، ولذلك كنت أخشى حبها لولدى العزيز الوحيد .

وفى آخر يوم من أيام نزهتنا فى الريفييرا جلست فى غرفة نوى أنتظره لأبذل آخر مجهود لاسترجاعه إلى أحضانى . فتجملت وتأنقت فى ملبسى حتى أظهر أمامه جميلة مقبولة . وفى منتصف الليل أقبل هارى بابتسامته الحلوة الحبيبة هاتفا :

— هالو ماما . . .

وحينئذ نظرت إليه فشعرت بالدموع تترقرق فى عينى شفقة به ورثاء له ثم قلت :

— أظن يا هاري أن الانسان يجدر به أن يواجه الحقائق كما هى . . . لقد أصبحت لاتحب أمك لأن قلبك قدعلق فتاة تكرهنى كل الكراهة؛ لقد انكسر قلبى وخاب أملي . . .

ونظرت إليه فرأيته ينظر خلال النافذة نظرة حالمة مفكرة ، فقال دون أن يلتفت إلي :

— أنت مخطئة يا أماه فى ماري . . . هى لاتكرهك . . . هى . . . لماذا ؟ ... هى لاتفكر فيك مطلقاً . . .

فقلت متحاملة هذه الاهانة بجلد وصبر ، ولكنى لم أتمكن من جعل صوتى مستقيما رائقاً :

— وأنت يا هارى ... ألم تعد تفكر فى أمك العزيزة التى كانت لك كل شيء فى العالم ، فى مدى العشرين سنة الماضية . . . أنسيتني ياهارى . . . يا ولدى العزيز ؟

وانتظرت على مضض ... انتظرت أن يسجد الابن أمام أمه الحبيبة ليعتذر اليها ويؤكد لها حبه وإخلاصه كما كان يفعل هارى من قبل ، ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث وأخيراً سمعته يقول :

— لقد مضى هـذا الوقت يا أماه . . . إنك تتكلمين عن الماضي . . . إنى ابن هذه اللحظة . . . لقد ولدت من جديد . . .

ثم . . . ثم غاب عن نظري . . .

كنت مطمئنة برغم ذلك لأننا سنرجع إلى لندن حيث يستطيع هارى أن ينسي فتاته الظريفة ذات العينين الواسعتين العميقتين والشباب الغض الفاتن، وينظر لأمه المسكينة التى قضت أتعس نزهة فى حياتها

وفى اللحظة الأخيرة قبيل رحيلنا رحت أتلهى بالنظر من خلال النافذة وما كدت أفعل حتى رأيت مارى تميل على هارى وتقبله في وجنتيه فيضمها هو بدوره ضمة حارة ويقبلها قبلة طويلة عميقة

لم أستطع أن أحتمل هـذا المنظر لأنى كنت أفضل أن أتعذب أمر العذاب ولا أراها تقبله . . . لقد كرهتها كالموت، ومقتها بجهنم، وشعرت فى هذه اللحظة أن الغيرة تجتاح قلبي فى عنف وثورة

ثم أقبل هارى فرحاً مغتبطاً ولم يعرف المسكين أن كلماته التى فاه بها بعد لحظة قد وقعت على رأسى وقوع الصاعقة . .

— ماما ... ماما : ستذهب مارى إلى لندن ولذلك سترافقنا فى رحلتنا ...

فأجبته بوحشية ثائرة :

— سوف لاتذهب هذه الفتاة إلى لندن . . سوف لاترحل معنا . . أفهمت ما أقول ؟

— ولكنها سترحل معنا يا أماه وقد وعدتها بذلك . . إنها جميلة ماهرة . . وهى المرأة الوحيدة القادرة على أن تجعل السعادة تغمر قلبى ، فهى تعمل كل شيء في سبيلي ومن أجلى . .

وما كدت أسمع كلماته هذه حتى انتفضت واقفة كحيوان حبيس وقلت صارخة :

— ماذا تعني أيها الطفل ؟

— ستقترن بي مارى

— هارى .. إنك مجنون ياولدى ، لأنك ستتزوج من فتاة لم تعرفها إلا منذ أسابيع . ستلوك الأفواه سيرتك ، وستتناولك الألسن بالهزء والسخرية . . ارجع لصوابك ياهارى وكن ابنى المطيع كما عهدتك . .

— دعهم يتكلموا يا أماه فانى لا أعبأ بهم ولا بحديثهم ما دمت أحب ماري وهى تحبني . .

عند ذلك انفجرت باكية بكاء مراً لم أعرفه منذ وفاة زوجى العزيز ثم قلت :

— أنت مجنون ياهارى . . مجنون حقاً ...

وكان الحزن قد أخذ منى كل مأخذ ، والغيرة كانت تفرى عظامى بوحشية رهيبة . . وقلبي . . وقلبي شعرت به يقف عن الحركة ، وكأن نصلاً حاداً اخترقه بعنف فتمزق ، لأن هارى سيفر من يدى . . ثم تمالكت نفسي وقلت بحرارة ...

— هارى . . ولدي . . كيف تتزوج من فتاة لاتعرف من هى وما أصلها . ؟ لابد أن تكون فقيرة معدمة ، وإلا لما بذلت هذا المجهود الهائل لاقتناصك . . كل الناس سيقولون إنك ضحية غريرة ضعيفة ...

— هذا لايعنيهم ... مارى يتيمة . . لقد عرفت مارى جيداً وأظنها هي المرأة الوحيدة القادرة على أن تجعلني سعيداً . . سعيداً جداً يا أماه ... سأتزوجها . . أجل سأتزوجها وأرجو أن تحبيها بعد ذلك

— مطلقاً . . مطلقاً . . سأكرهها . . سأمقتها . . ستكون عدوى اللدود . . هارى إنى أمنعك أن تتزوج من فتاة ...

— كفى ياوالدتى . . لاتنطقي بشئ تندمين عليه فيما بعد ...

ثم قال وكأنه ينظر فى آفاق بعيدة مجهولة :

— لقد كنتِ أفضل أم فى العالم ... ولكن حياتى يا أماه ... سأسير فى الطريق الذى أراه لنفسى ؛ انى أرجو منك ألا تتدخلى فى شئونى مرة أخرى . . إننى حر ... حر لأن حياتى ملكى وحدى لاينازعنى فيها منازع ... حاولى يا أماه أن تأخذى الأشياء كما هى .

ثم قال ببطء وصوته يتهدج :

— لقد جاهدت أيتها الأم العزيزة ولكنك فشلت . . وهذا ما يحزننى .

— أيمكن أن يكون هذا حقيقة ؟ هارى العزيز الذى من أجله ضحيت كل حياتى يخاطبنى الآن بهذه اللهجة القاسية ... ما أعظم تعاستى وشقائى ...

وقد تعهدت أمام الله ونفسى ألا أغفر لهارى ريفرز ما فعلت ... سوف لا أحبها ولا أصادقها مطلقاً ... مطلقاً ...

وكان عهدى هذا هو العار الأبدى الذي ظللنى بظله المظلم المقوت طيلة حياتى ، وسيرافقنى لعنة أبدية إلى قبرى . لأنى حافظت عليه . . .

* * *

ومرت الأيام متتابعة كنغمة تتكرر فى إحدى الأوبرات الثقيلة الملة ، وكنت لاأزورهما منذ تزوجا إلا لماما ، فهارى أدمن الخمر وأصبحت لا أراه إلا قليلا ، ومارى أخذت تلهو بسيارتها الصغيرة تقودها بسرعة جنونيه خيفة هابطة نحو المدينة أو آتية منها طيلة النهار

وفى يوم من أيام الربيع الجميلة زارنى هارى وزوجته وقد عزما على أن يقضيا يوم عطلة فى إيست بورن . . .

كانت مارى جميلة فى هذا اليوم بكل مافى هذه الكلمة من معان ، رائعة فاتنة . . فكانت فى شعرها الأسود الجميل وعينيها اللامعتين اللتين تنطقان

بتعان عميقة بعيدة . . ويديها الرفيقتين وقدها الرشيق الساحر . . . كانت تمثل ملاكا من الحسن والجمال هبط الى الأرض ليؤدى رسالة حية خالدة في الفتنة والاغراء .

وقبلني هارى ضاحكا فرحا ، ولكنى شممت رائحة الخمر تنبعث بشدة من فمه ، ثم قال لى إنه يريد أن يخبرنى بخبر سار عند رجوعه من نزهته ، وما كادت مارى تسمعه حتى ابتسمت ابتسامة رزينة ولم تنبس بكلمة لأنها لا تحادثنى إلا قليلا ... فكانت رزانتها ونظراتها الثابتة العميقة تزيد من حنقي عليها وكراهتى لها ... وأخيراً ذهبا لنزهتهما

* * *

لا أدرى كيف أكتب البقية الباقية من سلسلة عذابى المرير . . . أهى الذكرى أسطرها لتفرج من كربتي أم هي حياة حافلة بالظلم والغيرة قضيتها واسترجعها الآن فى مخيلتى لأشعر باللعنة تسحق عظامي والندم يكوى قلبي ؟ . . لا أدرى . وإنما أدرى أنى معذبة شقية . . .

وفى عصر هذا اليوم المشئوم فوجئت بزيارة الطبيب بوونت الذى ساعدنى فى ولادة هارى ، كانت نظراته حزينة كئيبة رأيت خلالها هما دفينا وحزنا بالغا فسألته جافلة :

— ما الذى حدث يا دكتور . . ؟ أجبنى بربك ماذا حدث . . ؟

— لا شيء يا عزيزتي . . . إنما هناك حادث مروع

عندئذ صرخت من أعماق قلبي :

— هارى . . . هارى . . . أخبرنى بسرعة هل هاري بخير ؟ . . .

— هارى سعيد يا سيدتي ... آه ... لقد ... لقد ... مات ولدك المسكين ...

— مات ... مات ... ماذا تعنى أيها الرجل ..؟ من الذى مات . . ؟ من الذى ذوى كشمعة فى مهب الرياح ؟ . . لا يمكن أن يكون هارى . . . هارى الذى كان مثلا حياً جميلا للشباب الغض اليانع . . . ؟ لا . . . لا . . . لا يمكن أن يكون هذا حقيقياً . أخبرنى ثانية يا دكتور . . . أخبرنى ثانية ماذا تعنى . . . ؟ !

وأخيراً وقف الرجل أمامي وأخبرنى بحزن عميق أن مارى كانت تسوق السيارة بسرعة جنونية عندما اعترضها حاجز مرتفع فانقلبت بهما السيارة ، فهاري مات ومارى أصيبت ببعض جروح . . .

— هارى يموت ومارى تبقى حية ؟ ! كانت تسوق السيارة . أجل هي التى قتلته بإهمالها الفظيع . ليعاقبها الله ... ليعاقبها الله ...

فأجابني الدكتور بصوت خافت مرتعش :

— لقد عوقبت يا سيدتى ... لقد كسر ظهرها

ثم أمسك بيدى المتصلبتين بوحشية مريعة وجعل يكفكف الدموع الغزيرة التى انهمرت كالمطر الغزير . . .

كم أنا حزينة ... وكم أنا شقية ... لقد قتلته اللعينة ... لقد قتلت وحيدى .. حياتى ... رجلى ...

ومرت على ساعات مظلمة حالكة مليئة بالأحزان طافحة باللوعة ... كنت أخاطب نفسى فيها قائلة :

— سأنتقم لك يا هارى ... سأنتقم لك يا ولدى لقد قتلتك الملعونة فعليها لعنة الله

وقد رأيتها واقفة أمام المحكمة تدلى بجريمتها ، فاعترفت أنها كانت تقود السيارة بسرعة جنونية ، ولكنها عند ما قيل لها إنها هي المسئولة الوحيدة عن وفاة زوجها ... اهتزت الفتاة ... اهتزت من الأعماق وصار وجهها باهتاً ترتسم عليه علامات الألم الصارخ والحزن العميق ... ثم انتهت المحاكمة وبرئت الفتاة المجرمة التى قتلت ولدى ... عند ذلك لم أحتمل الصدمة

فجلست على مقعد خارج المحكمة فرأيتها أمامي شاحبة الوجه منكسرة النفس ... فنظرت إليها وصرخت في وجهها بعد أن هززتها هزاً عنيفاً ثم صحت بها :

— سأقتلك أيتها المجرمة ... سأقتلك لأنك قتلت ولدي الوحيد ...

كانت الفتاة أقوى مني لأنها شابة في عنفوان الشباب ... كانت تستطيع أن تطرحني أرضاً ولكنها ظلت صامتة حزينة ، وكان وجهها الحزين يمثل الألم الصامت النبيل وترتسم عليه علامات غريبة غامضة كافية لأن تبعث في أقسى القلوب الشفقة والرحمة ثم ... ثم رأيتها تترنح وتسقط على الأرض بقامتها المديدة ووجهها النبيل أبيض كالثلج ... لقد تمددت على الأرض فاقدة الوعي ، وكانت حتى في إغمائها نبيلة هادئة رزينة

أجل لقد انتقمت بعض الشيء ... لقد جعلتها تتألم ... لقد جعلتها تعرف أني سأنتقم ، حسن ، سوف نرى ...

لا أدري أيهما يستحق عطف الناس وأيهما يستحق سخطهم ... أهي الأم التي تحزن لوفاة ابنها وتنتقم له من قاتلته ... أم الفتاة التي قتلت زوجها ؟ لا أدري . . ولكني حالما ترنحت مارى رأيت وجوهاً كثيرة ترتفع أمامي ساخطة لاعنة ، وعيوناً تنظر إليّ باشمئزاز وجفاء ... ولكن هذه الوجوه وتلك العيون الظالمة راحت تواسي تلك الفتاة المجرمة الممددة أمامي ... راحت تعطف عليها وتتعهدها بالرعاية والحنان ... ربي : أي عدالة تلك التي تعاقب البريء وتبرئ المجرم ؟..

وفي هذه اللحظة سعى إليّ الدكتور — صديق القديم — متجهم الوجه ، وفي صوته رنة مريرة من التأنيب والغضب

— ماذا فعلت يا سيدتي ؟ .. كان يجب أن ترحمي هذه الأرملة البائسة ... لقد سلكت معها مسلكاً شائناً

— لن أرحمها .. لقد أذاقتني مر الحياة ، ولذلك سأعذبها .. سأمقتها

— إنك لا تعذبينها وحدها يا سيدتي .. فإن امرأة ابنك ستصير أماً عما قريب

— ما .. ماذا تقول يا دكتور !.. ماذا تقول ؟

شعرت في هذه اللحظة أني أهتز بكليتي اهتزازاً عنيفاً كأني ريشة في مهب الرياح ... إذن الخبر المهم الذي أراد هاري أن يقوله لي هو .. هو هذا الخبر . يا إلهي لم يعش هاري العزيز حتى يرى ابنه وفلذة كبده يدرج على الأرض ... لم يتمتع بشبابه ولم ير السعادة التي تصبو إليها نفوس الآباء ...

ولأول مرة في حياتي صرخت من الأعماق وبكيت بدموع الحزن الذي لا يفنى ، والألم الذي لا يسكن ... بكيت من أجل ذلك الطفل اليتيم الذي حرم عطف الأبوة ... فما أشقاني من امرأة رمتها الأيام ذرة مضطربة في هذا المحيط الواسع الشاسع فتقلبت في أجواء قاتمة مظلمة ، وراحت تتقاذفها أعاصير الحياة القاسية المريعة بوحشية وقسوة . بكيت بحرارة ولكني لم أبك من أجل مارى ، لأني لن أنسى لها جريمتها ، ومع ذلك تمنيت لها الشفاء من أجل الطفل اليتيم الذي يعيش في أحشائها ... ولذلك انتظرت قرار الدكتور الذي أخبرني أن مارى في حالة سيئة ، وستلد بصعوبة ... وبهذه الكلمات القاسية امتلأ كأس شقائي حتى فاض وأغرقني ، ولم أعد أحتمل ... لم أعد أحتمل

لم أستطع أن أجلس إليها إلا بعد مدة . . . وكانت وقتذاك مضطجعة على ظهرها بهدوء على فراش المستشفى البسيط . . كانت كالحمامة الهزيلة الضعيفة . . . ولكن عينيها ظلتا عميقتين ساحرتين لم يخب بريقهما ولم ينطفئ نورهما ... وشعرها الأسود الجميل ... كان منهدلاً بإهمال لطيف فوق الوسادة .. كانت نبيلة في رقدتها رائعة في نظرتها ... حينئذ لم

أتعالك نفسي من أن أحنو عليها قليلا فقلت لها :

— إنني آسفة ...

فقاطعني بابتسامة لطيفة صافية

— لا تأسفي فكل شيء قد مضى . . . مضى كحلم رائع داعب خيالي حينا ثم ولى ... ولى ياعزيزتي كما ولى الرجل الذي أحببناه معا ... هناك طفل ... طفل سيتطلب حنانك وعفوك ...

— لا تخافي يامارى ...

— ولكن كيف ... كيف ؟

— لقد أعددت كل ما يلزم وستنتقلين إلى منزلي حالما تستطيعين الحركة وتعيشين معي حتى تتحسن حالتك وتلدي ...

وعند ذلك أجابتني بانفعال وقد تصاعد الدم إلى وجهها الشاحب الجميل :

— لا يمكنني أن أذهب معك يا سيدتي ... لا . . لا يمكن أن أكون عالة على غيري ؛ أجل لا أحب أن أكون حملا ثقيلا بغيضا فوق أكتاف المرأة التي كرهتني

قالت ذلك بكبرياء وأنفة كأميرة متكبرة أهينت في الصميم... ودون أن أدري وجدت نفسي أضغط على يديها المتصلبتين من الانفعال والغضب وقلت لها بحنان وعطف :

— حقا ما تقولين يا مارى ... ولكن يجدر بنا ياعزيزتي أن نفكر في ابن هارى ، لننس أحقادنا فقد قسيت كثيراً يافتاتي المسكينة ... فهل لك أن تصفحي عني يا مارى . . . اصفحي عن المرأة التي أساءت إليك فكانت مخطئة عمياء ...

عند ذلك صرخت المسكينة صرخة مزقت نياط قلبها . . . صرخة تعيسة مريرة جمعت كل صنوف الشقاء وحوت كل ألوان التعاسة . صرخت المسكينة قائلة :

— هارى ... هارى ... !

أجل لقد كانت تحب ولدي كما أحبه ، وفي هذه الصرخة التي مازال طنينها يتجاوب في فضاء قلبي كأنه جرس رهيب في معبد مهجور . . . وفي هذه الصرخة ألف الأسى بين قلبينا وطهر الحزن نفسينا وعشنا مدة من الزمن كأننا شخص واحد وروح واحدة وقلب واحد يخفق من أجل شخص حبيب عزيز . . .

وهكذا قبلت مارى أن تنتقل إلى منزلي وهناك بالرغم من العناية الفائقة كانت دائما شقية تعيسة ودائما حزينة باكية ...

وفي يوم جلست أحدثها عن طفولة هارى العزيز وكنت قد منعتها من ذكر سيرته فلمحتها تفكر بحزن ثم قالت :

— يظهر أنك جعلته الشيء العزيز الذي ملأ عليك حياتك ... أهذا حقيق ؟

— هذا حقيق ... لأنه حين مات زوجي كان هارى كل مالي في الحياة ، فقد اشتغلت وتعبت وضحيت من أجله وحده . . . كان كل كنزي في حياتي الحزينة ... كان ذلك الشعاع الذي أضاء حياتي المظلمة ... كان الخيط المتين الذي ربطني بالسماء والحياة ... ولذلك صرت له أما وأبا وأختا ، وكان هو لي وحدي لا ينازعني فيه منازع

وغابت مارى في تفكير طويل عميق ثم قالت :

— إني لا أصدق ذلك ... يخيل إلي يا سيدتي أن حبك لشيء ما خطر فظيع

— خطر . . ؟ ؟

— أجل يا سيدتي . . . عند ما تحبين شخصاً تريدين أن تستولي عليه وحدك ، وهذا سر بغضائك لي عند ما قاسمتك هارى العزيز ... أما أنا فسوف لا أكون كذلك مع طفلي ... سأدعه يعيش الحياة التي يريد أن يحياها ...

عندذلك فتحت فمي لأقول شيئاً قاسياً ، ولكني أمام

نظراتها الرزينة الحالمة، وعينيها الواسعتين في كبرياء، وعظمتها الغريبة الجذابة ... صمت ولم استطع النطق

ومرت الأيام وفي ليلة زرتها في فراشها فوجدتها تبكي بتعاسة مرة ثم راحت تنظر إلي باشفاق ورثاء، وأخيراً قالت :

— أريد أن أحادثك يا سيدتي ... لقد حلمت حلماً سريعاً عن ذلك اليوم المشئوم الذي مات فيه هاري ... إن الصمت يقتلني ياسيدتي ... إن الوحدة تعذبني عذاباً أليما ... لماذا لاتسمحين لي أن أتحدث عنه ؟ ... لقد بنيت حاجزاً منيعاً بيننا ... إنني وحيدة في هذا العالم ... وحيدة

عند ذلك أجبتها ببرود وخشونة حتى لا أدع مجالا لها في التحدث عنه :

لماذا نتحدث عنه وهو موضوع مؤلم لكلتينا ..؟

فأجابتني بوحشية ثائرة كأنها نمر محبوس

— إنني أحبه أيتها المرأة وما زلت أحبه ولن أجد أحداً سواك أتكلم معه عن هاري حبيبي العزيز ... إنك لا زلت تكرهينني لأني سلبتك وحيدك ولأني قتلته أيضاً . أيتها المرأة القاسية : ارحمي .. ارحمي ضعفي وحزني ...

— إنك تجهدين نفسك بدون طائل ... عندما يولد الطفل وتتحسن حالتك سأ ...

— سيكون الوقت متأخراً ... أخبريني ياسيدتي ... أخبريني بربك ... ألا يمكن أن تصفحي عني ؟

ثم مدت يديها الجميلتين النحيلتين في ضراعة واستغفار ... وعيناها ... آه إني لأراهما تنظران إلي بوحشة وباشفاق وتساؤل وقد انتظرت جوابي، كان يخيل إلي أن أميل عليها وأقبلها قبلة طويلة تنسى فيها شقاءها ... ولكني تذكرت هاري وميتته الشنعاء ... وخسارتي الفادحة التي لا تعوض، فقلت لها بصوت منخفض :

— إنني آسفة ... سأحاول أن أصفح

ثم ... ثم خرجت هاربة من الغرفة ... تمنيت أن أسترجع هذه الكلمات ولكن كبريائي الممقوتة وغيرتي القاتلة منعتاني من استرجاعها وإصلاح مافعلت وعند ما دخلت حجرتها مرة ثانية رأيتها راقدة ووجهها إلى ناحية الحائط تبكي بكاء أمر أصامتاً فقسوت عليها مرة ثانية وخرجت دون أن أتكلم لأنها لا تستحق الشفقة والرحمة ... فهل أنا ملاك حتى أغفر لها جريمتها ؟ كلا ... كلا ستكون عدوتي للنهاية ...

* * *

وفي ليلة حزينة كئيبة سمعت صوتاً خافتاً كأنه حشرجة ميت منبعث من غرفة مارى، أنين موجع أليم يصل إلى أذني فيحرمني النوم والراحة ... صوت حزين حملني على أن أقوم من نومي وأذهب إلى غرفة مارى فأراها مستلقية على ظهرها مغمضة العينين، ولكن الصوت الحزين ينبعث من بين شفتيها الجميلتين . وبرغم إرادتي كنت إلى جانبها أنظر إليها بعطف وحنان وهمست في أذني :

— أظن من الأحسن استدعاء الدكتور بالتلفون

— كم من الوقت قضيته على هذه الحال ؟

— منذ ... منذ غادرتني في أول الليل

شعرت بالحزن والألم يجتاحان قلبي المحطم لأني تركتها وحيدة في مثل هذا الليلة . كم أنا قاسية وكم أنا شريرة مجرمة ...

كانت مارى لاتستطيع الحركة ولا الجلوس .. كانت تتألم ألماً لاتقوى أشد النساء على احتماله ... وعيناها الذابلتان تنظران إلي لاشيء وجبينها الملتهب الجميل .. كل ذلك جعل منها صورة مجسمة حية للألم العميق والتعاسة البالغة ... فقلت لها بحنان عظيم حتى أعوض ماضي :

— هلا استطعت أن أفعل شيئاً ؟

— لقد مضى ... لقد مضى ... إذهبي ونامي ياسيدتى ... سأستريح عما قليل ...

لقد أجهدها الكلام وكان وجهها أصفر شاحباً ... كانت وحيدة ... وحيدة وسط صحراء شاسعة مترامية الأطراف ومع ذلك كان التبل ينشر عليها لوناً ساحراً جذاباً يجعل أقسى القلوب ينكسر ويتمزق تحت أقدامها .. حينئذ أردت أن أسامحها وأغفر لها .. أردت أن أسكب فى أذنيها كلمات الحب والعطف التي حرمتها .. ولكن .. ولكن منعنى من ذلك دخول الطبيب والممرضة .

كل إنسان يعلم خطورة هذه الساعة على أى أم ولكن حالة ماري كانت أردأ الحالات وأعقدها فوقف الدكتور أمامها متعباً منهكاً لأنها كانت مهمة ثقيلة على قواه الضعيفة .

وما دقت الساعة الرابعة صباحاً حتى سمعت صرخة طفل صغير ... فقفزت من مكاني من فرط السرور ، وبعد قليل دخلت غرفتى الممرضة حاملة الطفل بين يديها قائلة :

— ها هو ذا حفيدك ياسيدتى ...

حاولت أن أتناوله بين يدى ولكن سخافتى منعتنى من ذلك ... ولماذا أسر ؟ إنه ابن هارى الذى قتل ورحل ... ولكن ماري ... ربما تموت المسكينة دون أن أسمعها كلمة الغفران والحب لأنهم لن يسمحوا لى أن أدخل غرفتها الآن ... وبعد برهة أقبل الدكتور وقال :

— إنها لا تريد أن تشفى يا سيدتى ... إنها قوية ويحق لها أن تفتخر بقوتها حينما تخرج من هذا المأزق ولكنها لم تحاول ذلك ... لن تحاول ...

وما كدت أسمع ذلك حتى هلع قلبى وارتجفت أعضائى ، وفهمت ماذا يعنى فأجبته :

— أنت مخطئ يا دكتور ... إننى أريد ... أن تشفى ... لقد صفحت عنها ...

— تصفحين عنها ... يا إلهى ... أتعرفين ماذا فعلت هذه الفتاة عندما ولد الطفل ؟ ...

لقد قالت خذ الطفل يا دكتور إلى جدته العزيزة فربما تصفح عنى الآن ...

لم أستطع أن أحتمل هذا العذاب فرحت أكرر بغباوة ومرارة ...

— لقد صفحت عنها ... أجل لقد صفحت ...

كان يبدو على الدكتور علامات التعب المضنى ... كأن فى عينيه بريقاً هائلاً ؛ كأنه يحمل فيهما سراً يريد الكشف عنه ... وفجأة جلس على مقعد وأجلسنى بجانبه ثم أمسك بيدى وهو يقول ...

— سيدتى ... سأدلى إليك الآن بشئ مقدس عاهدت مارى منذ ستة شهور مضت أن أخفيه في طيات قلبي الحزين

— أى عهد يا سيدى ؟ ... أى عهد ؟ !

— إنها عاهدتنى ألا أقول لك كيف مات هارى ... ولكنى سأنقض هذا العهد وأقول لك ما منعتنى مارى المسكينة من قوله حتى تتمنى أن تبعثها من قبرها إن ماتت ... إنها شريفة ونبيلة يا سيدتى ...

عندئذ عيل صبري ولم أعد أحتمل التلميح فقلت:

— ما الذى تعهدت من أجله ... قل بربك

— إنك تعلمين ياسيدتى كما يعلم جميع الناس أن مارى هى التى كانت تقود السيارة وقت وقوع الحادثة، ولكن هذا خطأ ... خطأ وظلم ... هارى ... هارى ... ياسيدتى هو الذى كان يقود السيارة وقت وقوع الحادثة المؤلمة ... فقد كان ثملاً ...

— أتقول الصدق حقيقة يا دكتور . ؟ هارى لماذا ؟!... لماذا ؟!...

— لأنها وجدتك مغرماً غراماً جنونياً بهارى

لأنها خافت أن تهدم ذلك الحلم الرائع الذي يداعب خيالك... لأنها رأت أن إخبارك بالحقيقة كسر لقلبك وتعاسة لنفسك ففضلت المسكينة أن تنال سخطك وكراهيتك وتقع تحت طائلة عقابك وعقاب العدالة على أن تشوه تلك الصورة القدسية الحبيبة التي تحتفظين بها لهارى ... لقد ضحت فكانت فى تضحيتها نبيلة ، وأحبت فكانت فى حبها مخلصة ... لقد خافت عليك ياسيدتى ، ولم ترد أن تشوه سعادتك لأنها رأت أن سعادتك هى أن تكون سيرة ابنك نقية ومكانته سامية فى نفسك إلى الأبد

سمت رهيب نشر ألويته فوقنا عقب كلمات الطبيب الدامية . . . فحاولت أن أتخلص من هذا الكابوس المروع وأتحرر من هذا الجو البغيض ولكنى لم أفلح وظل صوت الضمير يعلو . . ويعلو حتى صار أشبه بقرقعة المدافع تدوي فى الميدان ، وبصرخات الجنود تطلب الرحمة . . الرحمة وأخيراً قلت بغباوة وبسخافة :

— أأستطيع أن أقابلها . . . يجب أن أقابلها يا دكتور .

— لك ما تريدين يا سيدتى . . . لك ما تريدين

وفى لحة كنت فى غرفتها فركعت بجانب فراشها ورحت أتمتم . . .

— إلهي . . . إلهي . . . أنقذ مارى . . . اجعل ماري تعيش مدة أطول حتى أستطيع أن أكفر . . .

لم تتحرك المسكينة ولم تفتح عينيها . . . كان وجهها الشاحب يحمل معانى هائلة من الألم والشقاء وكان جبينها النبيل الصافي يلتهب من الحمى . . . وأخيراً تحركت حركة ضعيفة فهتفت :

— مارى . . . مارى . . . امكثي معنا . . . لا تفارقينا . . . أنا والطفل سنحتاج إليك أيتها العزيزة . . . إننا نحبك يا مارى . . . مارى . . . مارى . . . أجيبى يا حبيبتى . . .

ولكنها لم تسمعنى . . . إذن لماذا لا يسمعنى الله . . . سأبتهل إليه . . . وانكببت على وجهى أبتهل إليه بحرارة وإيمان لم أعرفهما من قبل وبعد أن فرغت من الصلاة مددت يدى إلى وجهها أتحسسه . . . ولكن . . . ولكن وجدت أن الأمر قد انتهى . . . وكطير مكدود هزيل وسط عاصفة هوجاء . . . سقطت مارى المسكينة وسط زعازع الحياة وشقاء الانسانية . . . لقد ماتت كما يموت الجندى الشجاع وسط صحراء شاسعة رهيبة وحيداً ... منفرداً ... لقد ماتت ... أجل ... لقد ماتت ... وإنى موقنة أنها سعيدة بهذا الموت سعيدة.

* * *

والآن وأنا أسير بخطوات واسعة نحو نهايتى... أعيش مع حفيدتى العزيزة مارى التى كثيراً ما أجلس الساعات أحدثها عن أبيها الجميل وأمها النبيلة الشجاعة . . . وإن كنت أحدثها عن أمها حديثاً جميلاً حاراً فانى أجد نفسي أشد احتياجاً من هذه الطفلة إلى هذا الحديث لأجعل الندم واللوعة يخففان من ثقلهما على صدرى الضيق المهموم . . .

أيتها التعاسة . . .

إذا كانت هذه القصة تمس الناحية الشريرة فى الانسان فقد أدت غرضها المقصود . . . لأنها قصة امرأة شريرة غيورة ، كما أنها قصة امرأة نبيلة النفس كبيرة القلب . . . لقد قلتها لتحكم الأجيال بعدي على هذه الفتاة الصغيرة الراقدة الآن بجانبى كالملاك والتى تشبه أمها كل الشبه فكأنها قطعة حية منها ... وإنى لأتمنى أن يكون الحكم عادلاً ... شريفاً ...

أميل فرج